قصيرة في كامبريدج قبل الحرب. في الواقع، فإن معظم الأفكار الواردة في محاضرات راسل كانت واضحة في الأعمال التي أنتجها قبل أن يلتقيَ بفيتجنشتاين بمدةٍ طويلة؛ ولكن كما نلاحظ من كتاب فيتجنشتاين «دراسة منطقية فلسفية» — وهو كتابٌ ألَّفه فيتجنشتاين حين كان مجندًا على الجبهة في الجيش النمساوي — فإن الاثنين قد ناقشا هذه الأفكار بشيءٍ من الاستفاضة قبل الحرب. تلقَّى راسل رسالة من فيتجنشتاين من محبسه في معسكر للأسرى في إيطاليا، يُطلعه فيها على كتابه «دراسة منطقية فلسفية». وبعد أن أطلق الإيطاليون سراح فيتجنشتاين، حاول أن ينشر كتابه، ولكنه فشل في ذلك؛ لذا قدَّم راسل له المساعدة، وأقنع أحد الناشرين بنشر الكتاب بعد أن اتَّفق معه على كتابة مقدمة له. قدم راسل مساعدات مهمة إلى فيتجنشتاين عدة مرات — ومن أهمها تدبير حصوله على زمالة بحثية في كلية ترينيتي بعد ذلك بعشر سنوات — ومع ذلك انقطعت الصلة بين الرجلين بسبب خلافات مزاجية وفلسفية شديدة.

وقع راسل في الحب مرةً أخرى، وكانت من أحبها هذه المرة شابة تخرَّجت في كلية جيرتون تُدعى دورا بلاك. وفي عام ١٩٢٠ زار كلٌّ منهما الاتحاد السوفييتي وحده، وعادت دورا من الاتحاد السوفييتي وهي متحمسة له، فيما عاد راسل وهو يشعر بالعداء حياله. ألَّف راسل كتابًا لاذعًا عن البلاشفة، وتشاجر هو ودورا بسببه. ولكن ذلك لم يمنعهما من السفر معًا إلى الصين في عام ١٩٢١؛ إذ تلقَّى راسل دعوة لقضاء عام هناك كأستاذ زائر في بكين.

أحب راسل الصين، شأنه في ذلك شأن الكثيرين ممن يقضون أي مدة في الصين. وشأنه شأن أغلب هؤلاء الكثيرين، كان يميل إلى إضفاء طابع شاعري على الصينيين أنفسهم. وأشاد بحس الفكاهة الذي يتمتعون به وبحكمتهم وقدرتهم على الاستمتاع بكل ما هو جميل وحبهم الشديد التحضر للثقافة والعلم. ولكنه على نحوٍ ما لم يدرك مدى قسوة حياة غالبية الناس في ذلك البلد الكبير، ولا كيف كانت التقاليد العتيقة تقهر الصين وتُعِيقها. وأثناء إقامته هناك رفض أن يُنصِّب نفسه كناصحٍ للكثيرين الذين طلبوا نصحه بشأن طريقة حياتهم وتفكيرهم، وعن الكيفية التي يتسنَّى بها للصين الخروج من فقرها والاضطراب الإقطاعي الذي كانت تعاني منه. كان الفيلسوف الأمريكي جون ديوي يزور الصين في الوقت نفسه، ولم يتردد أن يتحدث في كل هذه الموضوعات؛ مما نتج عنه أنَّ ذكراه لا تزال ذات تأثير أقوى من ذكرى راسل. إن ميراث الحكماء شديد القوة في الصين؛ ومن ثَمَّ ضاعت من راسل فرصة لإفادة هذا البلد. ألَّف راسل كتابًا يعرض فيه آراءه عن

شكل ١-٦: كانت دورا بلاك (١٨٩٤–١٩٨٦) شابة متخرجة في كلية جيرتون. التقت براسل في عام ١٩١٦، وأَحبَّ كلٌّ منهما الآخر، ولكن دورا لم تقبل عرضه بالزواج إلا في سبتمبر عام ١٩٢١. وأنجبا طفلين، هما جون راسل وكاثرين راسل.[1]

الصين ومستقبلها، بَيْدَ أن هذا الكتاب الذي نُشر في وقتٍ لاحق في بلدٍ بعيد عن الصين مثل إنجلترا لم يصلح بديلًا عن النبوءات التي كان ضيوفه يأملون أن يسمعوها منه. بدلًا من ذلك، ألقى عليهم راسل محاضرات عن المنطق الرياضي.

وقرب نهاية إقامة راسل في بكين، مَرِض مرضًا شديدًا؛ إذ أصيب بنزلة شُعبية وكاد يموت. وبسبب التحمُّس الزائد لبعض الصحفيين اليابانيين أُعلن خبر وفاة راسل؛ وهكذا أتيح له أن يقرأ نعيه بنفسه، وقرأ أيضًا نعيًا من سطرٍ واحد ظهر في دورية تبشيرية أضحكه بصفة خاصة، وكان يقول: «ها قد سنحت الفرصة للبعثات التبشيرية ليتنفسوا الصُّعَداء لسماع خبر وفاة السيد برتراند راسل.»

كانت أليس قد وافقت أخيرًا على الطلاق؛ لذا تزوج راسل ودورا في سبتمبر عام ١٩٢١ عند عودتهما إلى إنجلترا، وسرعان ما رُزقا بعدئذٍ بمدة وجيزة بابنهما الأول جون كونراد، ورُزقا بعد ذلك بسنتين بابنةٍ أطلقا عليها كيت. ترشح راسل مرتين لعضوية البرلمان كمرشحٍ عن حزب العمال في منطقة تشيلسي، وذلك في عامَي ١٩٢٢ و١٩٢٣،

ولكنه لم يفُز. كان ينوء تحت إلحاح المسئوليات الأسرية؛ وكان بحاجة إلى كسب رزقه؛ مما دفعه إلى التخلي مرةً أخرى عن فكرة المشاركة السياسية البرلمانية، والانكباب على الكتابة والتدريس في الجامعة. وكانت أكثر أوساط التدريس الجامعي ربحًا موجودةً في الولايات المتحدة، فزارها أربع مرات خلال العشرينيات من القرن العشرين. وكان من بين الكتب الرائجة التي نشرها كتب «ألف باء النسبية» و«ألف باء الذرات» و«ما أُومِن به» و«عن التربية» و«مقالات متشككة» و«الزواج والأخلاق» و«الفوز بالسعادة». وحققت بعض هذه الكتب نجاحًا ماليًّا، وتسبَّب بعضها في التشهير به، وكان ذلك غالبًا بسبب ما تحتويه من آراء ليبرالية عن الأخلاقيات الجنسية. لم يهمل راسل الفلسفة أيضًا؛ إذ ظهر كتابه «تحليل العقل» — الذي بدأ تأليفه وهو في السجن — في عام ١٩٢١؛ وقد وُجهت إليه الدعوة لإلقاء «محاضرات تارنر» في كامبريدج عام ١٩٢٥، ونُشرت في عام ١٩٢٧ بعنوان «تحليل المادة». وأنتج كذلك كتابًا دراسيًّا تمهيديًّا بعنوان «موجز للفلسفة».

أشبع مجيء الأطفال تَوقًا طالما كان يراود راسل. أمدَّه طفلاه بـ «محور عاطفي جديد» استغرقه في الاهتمامات الأبوية لبقية عقد العشرينيات من القرن العشرين. اشترى بيتًا في كورنوول حتى تقضيَ فيه الأسرة العطلات الصيفية، وحين بلغ جون وكيت سن المدرسة، قرَّر راسل ودورا إنشاء مدرسة تخصهما حتى يتعلم الأطفال على النحو الأفضل من وجهة نظرهما. واستأجرا القصر الريفي الذي يملكه أخو راسل في التلال الجنوبية، وأسسا مدرسة يرتادها ٢٠ طفلًا كلهم في السن نفسها تقريبًا. كان القصر كبيرًا، ويقع على مساحة ٢٠٠ فدان من أراضي الغابات البكر، والتي تعجُّ بأشجار الزان وأشجار الصنوبر، وكانت تجوبها كائنات من مختلِف أشكال الحياة البرية، بما فيها الغزلان. وكان المنظر من القصر نفسه جميلًا.

ومع كل هذه المثاليات والموقع الريفي الساحر الذي تتمتع به المدرسة، فشلت التجربة في النهاية؛ إذ لم تتمكن المدرسة قط من تغطية تكاليفها، وكان الهدف الذي يسعى إليه راسل من تأليف الكتب والمقالات الصحفية الرائجة، والسفر عبر المحيط الأطلنطي ذهابًا وعودة في جولات لإلقاء محاضرات — مع أنه كان يكره الرحلات البحرية — هو دعم المدرسة في المقام الأول. قامت دورا أيضًا بجولة لإلقاء محاضرات في أمريكا، ولكن مسئوليتها الأساسية كانت إدارة المدرسة. واتَّضح أنه من بين الصعوبات التي واجهت المدرسة طاقم موظفي المدرسة؛ إذ لم يعثر راسل ودورا على معلِّمين يمكنهم تطبيق مبادئهما باستمرار، وكانت تلك المبادئ تشمل السماح بالحرية التي يحكمها الانضباط؛

إذ لم تكن مدرسة راسل مكانًا فوضويًّا للصغار، وذلك بالرغم من ادِّعاءات كانت تقول عكس ذلك؛ وكتب راسل فيما بعد: «السماح للأطفال بالانطلاق من شأنه أن يُفسح المجال لمكان يسوده العنف، يرعب فيه الأقوياءُ الضعفاءَ؛ فأي مدرسة هي أشبه بالدنيا؛ لا يمنع العنفَ الوحشيَّ فيها إلا وجودُ حكومة.»

ومن الصعوبات الأخرى أن المدرسة كانت تجتذب نسبة مرتفعة من الأطفال المشاغبين، الذين حاول أولياء أمورهم إرسالهم إلى مدارس أخرى، ولكن اضطُروا في النهاية إلى تجربة المدارس التجريبية. ولما كان راسل وزوجته بحاجة إلى المال، قبلوا هؤلاء الأطفال، ولكنهما اكتشفا أن وجودهم تسبَّب في صعوبة شديدة في إدارة المدرسة.

ومع ذلك كان أسوأ ما في الأمر هو تأثير ذلك على أطفال راسل. كان التلاميذ الآخرون يظنون أن طفلَيه يتلقَّيَان معاملة تفضيلية دون وجه حقٍّ لأن والدَيهما يديران المدرسة، ولكن راسل ودورا حاولا أن يعاملاهما على قدم المساواة مع الآخرين، في محاولةٍ منهما ليكونا عادلَين، وتسبَّب ذلك في حرمان جون وكيت من والدَيهما في واقع الأمر، وكم تألَّمَا لذلك. وعلى حد وصف راسل، فإن أول فرحة في حياة الأسرة «تبددت وحل محلها الإحراج» (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص٣٩٠).

في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى سادت العالم آمال معقودة على التعليم كطريقة لتغيير وجه العالم؛ ففي النمسا، على سبيل المثال، حيث كان لسقوط الإمبراطورية النمساوية المجرية تأثير مدمر، امتهن الكثير من المثقفين الشباب التدريس في المدارس أملًا في بناء البشر من جديد. وكان كارل بوبر ولودفيج فيتجنشتاين من بينهم. كان راسل منتميًا إلى هذا الاتجاه بطريقةٍ غير مباشرة. ولكن التفاصيل الواقعية للتدريس ومدى تعقيد الطبيعة البشرية سرعان ما جعلت معظمهم يُفِيق من وهمه، وتخلَّوْا عن مهنة التدريس.

وفي عام ١٩٣١ تُوفِّي شقيق راسل — فرانك — فجأة، وورث راسل عنه لقب إيرل، وورث أيضًا ديون أخيه والتزامًا يقضي بأن يدفع ٤٠٠ جنيه إسترليني سنويًّا كنفقة لثاني زوجات أخيه الثلاث السابقات. كان موقفه من لقب إيرل ساخرًا بعض الشيء، ولكنه لم يكن يمانع في استغلاله بعدة طرق، كان أهمها استغلال ما منحته إياه من حق الدخول تلقائيًّا إلى منابر دوائر أهل الحل والعقد؛ فهناك كان من الممكن لآرائه المستقلة التي تنتقد الأفكار والمعتقدات الراسخة السائدة أن يكون لها أكبر الأثر. ولكنه لم يكن يكثر من حضور جلسات مجلس اللوردات، وكان يُكِنُّ شيئًا من الاحتقار للنظام الطبقي البريطاني.

وفي هذا التوقيت تقريبًا كان زواج راسل ينوء تحت وطأة التوتر بسبب المدرسة والعلاقات الغرامية المتعددة التي كان كلا الزوجين ينغمسان فيها. ولم يكن راسل يعارض في أن يكون لدورا علاقات غرامية، ولكنه لم يكن يرغب في أن يكون مسئولًا عن أي أطفال يأتون ثمرةً لتلك العلاقات. حملت دورا بطفلة من عشيق أمريكي، وسُجلت الطفلة في البداية باعتبارها ابنة راسل؛ ولكنه حين وجدها فيما بعدُ مسجلة باسمه في كتاب ديبريتس الذي يشتمل على أسماء النبلاء، اتخذ إجراءات قانونية لشطب اسمها من الكتاب. كان راسل إذنْ يملك دوافع تتعلق بالحفاظ على نقاء السلالة.

وفي أعقاب ما حلَّ براسل من نكبات بسبب المدرسة وانفصاله عن دورا، فضلًا عن الأعباء المالية الإضافية التي ورثها عن أخيه، كان راسل لا يزال بحاجة إلى كسب عيشه من نتاج قلمه. انتهت علاقة العمل المجزية التي جمعت راسل بصحف هيرست في أمريكا — وكان راسل يكتب عمودًا فيها — في أوائل ذلك العَقد؛ ولذا اضطُر إلى تكريس كل طاقته لتأليف الكتب. وفي عام ١٩٣٢ نشر كتاب «الاستشراف العلمي»، وفي عام ١٩٣٤ نشر كتابًا من أفضل كتبه، وهو يتناول التاريخ السياسي، وهو بعنوان «الحرية والتنظيم ١٨١٤–١٩١٤». ونشر في عام ١٩٣٥ كتاب «في مديح الكسل»، وفي عام ١٩٣٦ كتاب «أين الطريق إلى السلام؟» وفي هذا الكتاب أعاد التأكيد على اتجاهه المناهض للحرب مع بعض التحفظات والتزامه بفكرة الحكومة العالمية. ولكن بحلول توقيت نشر هذا الكتاب كان قد أدرك من قبلُ ضرورة وجود تحفظات أكبر على حركة مناهضة الحرب، وخصوصًا — كما تبيَّن من الأحداث التي شهدتها ألمانيا على مدى العامين أو ثلاثة الأعوام السابقة — في مواجهة خطرٍ رأى أنه «منفِّر للغاية» مثل النازية. وبحلول وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية كان قد قرَّر أن مقاومة هتلر يجب أن تكون بلا تحفظات.

في عام ١٩٣٧ نشر راسل كتاب «أوراق أمبيرلي»، وهو سيرة لحياة والدَيه يتألف من ثلاثة أجزاء. كان يرى أن هذا العمل «مريح»؛ لأنه كان معجبًا بالآراء الجريئة التي كان يعتنقها والداه وكان متفقًا معها تمامًا، وكان يشعر بالحنين إلى العالم الرحب والمفعم بالأمل — هكذا كان يبدو لراسل — الذي كانا يناضلان فيه دفاعًا عن آرائهما. كانت تعاون راسل في هذا الكتاب وفي كتاب «الحرية والتنظيم ١٨١٤–١٩١٤» امرأة شابة — كانت تعمل معلمة في مدرسته سابقًا، ثم أصبحت عشيقته، ثم زوجته الثالثة في عام ١٩٣٦ — تُدْعَى باتريشا سبينس (وكانت تُدعى عادةً «بيتر»). وفي عام ١٩٣٧ رُزقا بابنٍ، سمَّيَاه كونراد. وانتقلا إلى منزلٍ بالقرب من جامعة أكسفورد حيث كان راسل يدرس مقررًا من

المحاضرات ويعقد مناقشات مع مجموعة من الفلاسفة الشباب، من بينهم إيه جيه آير. ثم نشر كتاب «القوة، تحليل اجتماعي جديد» في عام ١٩٣٨، وتحوَّلت محاضراته التي ألقاها في جامعة أكسفورد — التي كانت بعنوان «كلمات وحقائق» في البداية — إلى كتابه الفلسفي التالي، بعنوان «ما وراء المعنى والحقيقة»، ونُشر عام ١٩٤٠.

عام ١٩٣٨ سافر راسل مع زوجته بيتر وكونراد إلى أمريكا لتسلُّم منصب أستاذ زائر في جامعة شيكاجو. وعقد مناقشات منشطة هناك مع طلاب وزملاء أذكياء — كان من بين الزملاء رودولف كارناب — ولكنه لم يكن على وفاق مع رئيس قسم الفلسفة، وكان يكره شيكاجو، ووصفها بأنها «مدينة بغيضة ذات طقس سيئ.» وفي أواخر العام انتقلت أسرة راسل إلى كاليفورنيا؛ حيث وجد طقسها ألطفَ بكثير. كان راسل يُدرِّس في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. وفي صيف عام ١٩٣٩ جاء جون وكيت لقضاء عطلة في كاليفورنيا، ولكن اندلاع الحرب حال دون عودتهما إلى إنجلترا؛ لذلك أدخلهما راسل في جامعة كاليفورنيا.

وبرغم الطقس المشرق في كاليفورنيا، كان راسل يشعر بقدرٍ أقل من الرضا في جامعة كاليفورنيا عما كان عليه شعوره في شيكاجو؛ لأن الموظفين والطلاب لم يكونوا مؤهلين، وكان رئيس الجامعة سيئ الطبع إلى حدٍّ كبير من وجهة نظر راسل؛ ولذلك، بعد عام واحد، قَبِل عرضًا لشغْل منصب أستاذ في كلية سيتي كوليدج أوف نيويورك. ولكن قبل أن يتمكن من تسلُّم منصبه، ثارت حوله فضيحة بسبب الإلحاد والفجور. وكان أول من فجَّر شرارة الفضيحة هو أسقفًا من الكنيسة الأسقفية، ونقلها الكاثوليكيون بكل حماس، وذاعت أنباؤها بسبب دعوى قضائية رفعتها أم طالبة كانت ستدخل الكلية. وقالت الأم — وتُدعى السيدة كاي — إن وجود راسل في الكلية سيكون خطيرًا على عفة ابنتها. ولم يتمكَّن راسل من الدفاع عن نفسه في المحكمة؛ لأن الدعوى كانت مرفوعة ضد بلدية نيويورك ولم يكن هو طرفًا فيها. ووصف محامي السيدة كاي أعمال راسل بأنها «فاسقة، وداعرة، وشهوانية، وشَبِقة، ومثيرة للشهوة، وماجنة، وتتسم بضيق الأفق، وكاذبة، ومجردة من القيمة الأخلاقية.» وكان من أسباب هذا الوصف أن راسل ذكر في كتابٍ له أنه لا ينبغي عقاب الأطفال الصغار على الاستمناء. وتفوَّق القاضي الأيرلندي الكاثوليكي في سبِّ وذم راسل على محامي السيدة كاي وهو يوجز الاتهام الموجه لراسل. وربحت القضيةَ السيدةُ كاي طبعًا.

ولم تتسبب القضية في تأليب مدينة نيويورك وولاية نيويورك بأكملها ضد راسل فحسب، بل تسببت في تأليب البلاد بأكملها ضده. وبعد طرده من وظيفته في نيويورك،

لم يستطع في البداية أن يجد أي مكان آخر يقبل بمنحه وظيفة في مجال التدريس، ولم يستطع كذلك أن يجد أي جريدة تعرض عليه كتابة عمود فيها، ونظرًا لظروف الحرب كان من المستحيل الحصول على المال من إنجلترا؛ وهكذا تقطَّعت به السبل خارج بلاده دون مورد للرزق، وهو مسئول عن أسرة عليه أن يعولها.

أنقذ راسل من هذه المعضلة جامعة هارفرد أولًا؛ إذ وجَّهت إليه دعوة كريمة للتدريس فيها في عام ١٩٤٠، ثم أنقذه مليونير من مدينة فيلادلفيا، يُدعى د. بارنز، وكان من هواة جمع القطع الفنية وصاحب مؤسسة مخصصة في المقام الأول لدراسة تاريخ الفنون. منح بارنز راسل عقدًا مدته خمس سنوات للتدريس في المؤسسة. ومن الأمور التي وجدها راسل مسلية أن القاعة التي كان يُلقي فيها محاضراته كانت معلَّقةً على جدرانها لوحاتٌ فرنسية تصور أشخاصًا عراة، بَيْدَ أنه كان يعتقد أن ذلك لا يتناسب مع الفلسفة الأكاديمية. كان بارنز غريب الأطوار ويُشتهَر بالتشاجر مع الموظفين العاملين لديه؛ فأصدر فجأة إخطار فصل بعد أقل من نصف مدة عقد راسل؛ لأن محاضرات راسل كانت — في رأيه — سيئة الإعداد. نُشرت هذه المحاضرات بعدئذٍ ككتاب بعنوان «تاريخ الفلسفة الغربية»، وأصبح أكثر كتب راسل نجاحًا بفارق كبير على المستويين الشعبي والمالي. ورفع راسل دعوى على بارنز لخرق العقد، وأعطى المخطوطة للقاضي ليقرأها، وربح القضية. ومن نافلة القول أنه توجد أجزاء من هذا الكتاب الشهير مختصرة إلى حدٍّ يجعل المرء يشعر بشيءٍ من التعاطف مع مليونير فيلادلفيا. ولكنه من نواحٍ أخرى عبارة عن دراسة شاملة رائعة تتناول الفكر الغربي تتَّسم بأسلوب ممتع سهل القراءة، ويتميَّز الكتاب بوضع الفكر الغربي في سياقه التاريخي على نحوٍ مفيد. من الواضح أن راسل استمتع بكتابته، ويظهر هذا الاستمتاع في الكتاب، كما تُظْهِر تعليقاته اللاحقة عن الكتاب أنه كان يدرك مواطن القصور فيه.

استكمل راسل العمل في كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» في مكتبة كلية برين مور بعد انفصاله عن بارنز. ويعود الفضل في ذلك إلى كَرَم الأستاذ الجامعي بول فايس، الذي وجَّه الدعوة لراسل للعمل في الكلية، وذلك حين كان راسل ينتظر الحصول على إذنٍ من السفارة البريطانية في واشنطن للعودة إلى إنجلترا. عرضت كلية ترينيتي على راسل فرصة الحصول على درجة الزمالة؛ مما أنقذ راسل من الصعوبات التي كان يواجهها، وأنقذه كذلك التقدم الهائل الذي كان يُحرِزه كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية». وقبل عودة راسل بحرًا وسط أخطار الغواصات الألمانية التي كانت تجوب المحيط الأطلنطي، أمضى راسل

مدة قصيرة في جامعة برينستون، حيث كانت له مناقشات مع أينشتاين وكيرت جوديل وفولفجانج باولي. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، درَّس راسل في جامعة كامبريدج، ونشر كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» في عام ١٩٤٥ وكتاب «المعرفة الإنسانية: نطاقها وحدودها» في عام ١٩٤٨. كان هذا الكتاب هو آخر الأعمال الفلسفية لراسل، وقد أصيب بخيبة أمل حين تلقَّى الكتاب اهتمامًا محدودًا من الأوساط الفلسفية. ونسب ذلك إلى الشعبية الهائلة التي كانت تحظى بها أفكار فيتجنشتاين آنذاك ولفترة بعد ذلك. وفي عام ١٩٤٩ — وهو عام وصفه بأنه «أوج الرفعة» التي نالها — تغيَّرت الزمالة التي حصل عليها في كلية ترينيتي إلى زمالة مدى الحياة دون تحمُّل واجبات تدريس، واختير للحصول على زمالة شرفية للأكاديمية البريطانية، ودعته هيئة الإذاعة البريطانية لإلقاء أول سلسلة من محاضرات رايث، ومنحه الملك جورج الخامس وسام الاستحقاق، وفي العام التالي فاز بجائزة نوبل للآداب، ووصله نبأ نيله الجائزة وهو في زيارة جديدة للولايات المتحدة.

سُرَّ راسل لمنحه وسام الاستحقاق، وتوجَّه إلى قصر باكنجهام لحضور حفل تقليد الوسام. وشعر الملك جورج بالحرج لاضطراره إلى التعامل بلطف مع رجلٍ ارتكب الزنا وسبقت إدانته ويميل إلى انتقاد الأفكار والمعتقدات الراسخة، وفضلًا عن ذلك — على حد وصف الملك — عجيب المظهر؛ فقال له الملك: «لقد كنتَ تسلك أحيانًا مسلكًا لن يكون من اللائق أن يكون مسلكًا شائعًا.» وكان الرد الذي كاد يفلت من بين شفتَي راسل، ولكنه تمكَّن من كبحه: «مثل أخيك.» وكان يقصد الملك إدوارد الثامن الذي تنازل عن العرش؛ لكنه قال بدلًا من ذلك: «يتوقف السلوك الذي ينبغي على المرء أن يسلكه على مهنته؛ فساعي البريد، مثلًا، ينبغي أن يدقَّ على كل الأبواب في شارعٍ معين ليسلم الخطابات، ولكن إذا دق أحدٌ غيره على كل الأبواب، فسيُعتبر ذلك من قبيل الإزعاج.» وعندها غيَّر الملك الموضوع بسرعة (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص٥١٦-٥١٧).

وبفضل المكانة الرفيعة الجديدة التي اكتسبها راسل، ولا سيما معارضته الطويلة الأمد للشيوعية في الاتحاد السوفييتي، استعانت به الحكومة البريطانية في زيادة برودة الحرب الباردة. وفي سبيل تحقيق هذه المهمة زار ألمانيا والسويد لإلقاء محاضرات. وأثناء زيارته للسويد سقطت الطائرة المائية التي كان يستقلها في ميناء تروندهايم، واضطُر عندئذٍ إلى السباحة في مياه شديدة البرودة لينجو؛ أما خلال زيارته لألمانيا فقد أصبح مؤقتًا فردًا من أفراد القوات الجوية البريطانية، وهو ما أسعده كثيرًا.

كان راسل كثير السفر في خمسينيات القرن العشرين — إلى أستراليا والهند وأمريكا مرة أخرى، وكذلك أوروبا والبلدان الإسكندنافية — وكان يُلقي محاضرات هناك طوال

الوقت، وكان يحظى بشهرة كبيرة هناك. وبعد انفصال راسل عن بيتر سبينس بثلاث سنوات تزوَّج من صديقته الأمريكية التليدة إيديث فينش، وأمضيا شهر العسل في باريس؛ ولكن حتى حينما كان راسل يتجول بأرجاء المدينة لمشاهدة معالمها — ولم يكن أيٌّ منهما قد تجوَّل فيها كسائحٍ قط؛ لأن كلًّا منهما سبقت له الإقامة فيها — كان الناس يتعرفون عليه ويتجمَّعون حوله.

تحوَّلت الأسفار وجولات إلقاء المحاضرات إلى كتب، كدأب راسل دومًا. وظهرت محاضرات رايث ككتاب بعنوان «السلطة والفرد». وفي عام ١٩٥٤ نشر كتاب «المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة»، وهو الكتاب الذي أدرج فيه الخطبة الرسمية التي ألقاها بمناسبة تسلُّمه جائزة نوبل. ولما كان راسل قد نال جائزة نوبل في الآداب (ورد في خطاب التنويه كتاب «الزواج والأخلاق»)، حفزه ذلك على الكتابة القصصية. وفي عام ١٩٢١ كتب رواية ولكن لم يحاول نشرها، وكتب مجموعتين من القصص القصيرة — أو إن شئنا الدقة قلنا الحكايات الرمزية القصيرة — وكلها ذات مغزًى فلسفيٍّ أو جدلي، بعنوان «الشيطان في الضواحي» و«كوابيس المرموقين». وفي عام ١٩٥٦ نشر كتاب «صور من الذاكرة»، وهو سلسلة من المقالات الوصفية لأشخاص مرموقين تعرف عليهم، وفي عام ١٩٥٩، قدَّم للعالم سيرته الذاتية الفكرية، وعنوانها، «تطوري الفلسفي»، وتلخِّص التقدم الذي شهدته آراؤه منذ الطفولة فصاعدًا.

لكن أي فكرة مفادها أن راسل قد تمكَّن أخيرًا من الدخول إلى دوائر أهل الحل والعقد — وأنه سيُخفف من غلوائه ويركن إلى الشيخوخة الهادئة المكللة بالجلال والاحترام — كانت خاطئة؛ إذ إن راسل كان يرى أن العالم يحدق به خطر داهم ومتزايد بسرعةٍ، وكان يرى أنه من المحتم مقاومته. وكان هذا الخطر هو انتشار أسلحة الدمار الشامل. وبدءًا من منتصف خمسينيات القرن العشرين وحتى وفاته في فبراير عام ١٩٧٠، ظلَّ يناضل ضد الأسلحة والحرب بحماس شابٍّ في مقتبل العمر؛ مما أدى إلى الحكم عليه بالسجن مرة أخرى، وذلك فضلًا عن عواقب أخرى — خُفف الحكم بسبب تقدُّمه في السن (كان آنذاك في التسعينيات من عمره)، بحيث أصبحت العقوبة أسبوعًا في مستشفى السجن — وجلب عليه موقفه ذلك الكراهية والعداوة في سنواته الأخيرة، خاصةً بسبب معارضته الطائشة المفرطة بل والمسعورة — فيما كان يبدو — للأفعال الأمريكية في حرب فيتنام. اتضح فيما بعدُ أن اتهاماته للولايات المتحدة بارتكاب جرائم حرب كانت قائمة على معلومات صحيحة في معظمها. وفي إطار هذه المساعي أصبح راسل أول رئيس للحملة المعنية بنزع

السلاح النووي، ونشر كتابَين — «المنطق السليم والحرب النووية» و«هل يوجد مستقبل للبشر؟» — وأدَّى دورًا مهمًّا في تأسيس مؤتمر بوجواش وفي تأسيس المحكمة الدولية لجرائم الحرب تعبيرًا عن المعارضة لحرب فيتنام، وذلك بمشاركة جان بول سارتر.

تَرِدُ مناقشةٌ للصراعات السياسية التي شهدها راسل إبان السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته في الفصل الرابع. كان راسل يبدو وكأنه يزداد شبابًا مع الزمن عند خاتمة حياته، رغم شيخوخة الجسد وشيءٍ من الوهن (ولكنه كان نشطًا ومتيقظًا حتى النهاية، حين تُوفِّي وهو في عامه الثامن والتسعين)؛ إذ قدمته جدته إلى العالم على صورة كهل فيكتوري، لكنه غيَّر من نفسه إلى فارس مطوف دائم الشباب؛ فارس صادق وصارم ذي فكر مهيب ومقدرة هائلة ككاتب، يستخدم مواهبه — ولعل من أهمها قدراتِه الفريدةَ المتعلقة بالمنطق وخفة الظل — للتصدي للقوى الغاشمة.

إن منظور الزمن من شأنه إما أن يضخم من شأن مَن شغلوا المشهد العام وإما أن يقلل منه. ويتضاءل السواد الأعظم من هؤلاء ويظلون في السفوح، فيما يسمو قلائل إلى قمم الجلال. ويظهر راسل صرحًا منيفًا بين القمم.

هوامش

(1) William Ready Division of Archives and Research Collections, McMaster University, Canada.

(2) The Bodleian Library, Oxford.

(3) © Courtesy of the artist's estate/Bridgeman Art Library, London.

(4) © K M Westermann/Corbis.

الفصل الثاني

المنطق والفلسفة

مقدمة

كان الحافز الفلسفي الأساسي الذي يدفع راسل — على حد تعبيره — هو اكتشاف ما إذا كان من الممكن معرفة أي شيء معرفةً يقينية. وقد راوده هذا الطموح — الذي يطابق طموح ديكارت — بسبب أزمتَين فكريتَين مبكرتَين: فقدانه الإيمان الديني، وخيبة أمله في الاضطرار إلى تقبُّل البديهيات كأساسٍ للهندسة. وكان أول مسعًى فلسفيٍّ حقيقيٍّ يتولاه هو إثبات أن الرياضيات تعتمد على المنطق؛ فنجاحه في هذا المسعى كان من شأنه أن يقدم أساسًا من اليقين للمعرفة الرياضية. فشل المشروع، لكن انطلقت من المحاولة عدة تطورات فلسفية مهمة. واتجه راسل بعد ذلك إلى مشكلات الفلسفة العامة؛ حيث يصبح العثور على اليقين أصعب. ومع ذلك أخذ يعمل في بناء نظريات كان يأمل أن توفر حلولًا مُرضية، بصرف النظر عن الطابع المراوغ لليقين. وراح يعود إلى هذه المشكلات مرة بعد مرة، ويطور آراءه ويغيرها وهو يؤمن بالأساليب التحليلية المستمدة من عمله المنطقي. وقد شعر في آخر الأمر أن بإمكانه أن يقول إنه حقق درجةً من النجاح، مع أنه كان يدرك أنه لم يكن يتفق معه إلا قلة من أقرانه الفلاسفة.

حين يدرس المرء الأعمال الفلسفية لراسل، ويتجاهل حقيقة أنها تطوَّرت على مدى فترة زمنية طويلة للغاية — إذ كانت كثيرًا ما تتخللها أنشطة كثيرة أخرى تدوم لفترات طويلة — فإنه يندهش لمدى استمرار ومنطقية التطور الذي تمثِّله. وحسب وصف راسل لتطوره الفلسفي، يقول إن حياته الفلسفية انقسمت إلى قسمين: القسم الأول تمثَّل في

التجريب المبكر والقصير الأمد للمثالية، أما القسم الثاني — وهو مستلهَم من اكتشافه لأساليب منطقية جديدة — فظلَّ يسيطر على رأيه منذ ذلك الحين فصاعدًا:

> هناك قسم مهم في عملي الفلسفي — في عامَي ١٨٩٩–١٩٠٠ — أخذت فيه أعتنق فلسفة مذهب الذرية المنطقية وأسلوب بيانو في المنطق الرياضي. كان هذا تغيرًا جذريًّا هائلًا بحيث إنه يجعل عملي السابق — فيما عدا ما كان رياضيًّا بحتًا — غير ذي صلة بكل ما أنجزته فيما بعد. كان التغير في هذه السنوات بمنزلة تغير جذري؛ أما التغيرات اللاحقة فكانت تتسم بأنها بمنزلة تطوُّر.
>
> (تطوري الفلسفي، ص١١)

كان التطور الذي أعقب التغير الجذري كبيرًا، ولكن كانت تحفزه في كل مرحلة حاجةٌ إلى حل المشكلات التي تأتي بها المراحل السابقة، أو — إذا كانت المشكلات أكبر من اللازم — إلى اكتشاف طرق بديلة للتقدم للأمام. وتوضح هذه المتوالية الجدلية من المشكلات أن الطرفة التي أطلقها تشارلز برود «ينتج السيد برتراند راسل نظامًا فلسفيًّا جديدًا كل عام أو نحو ذلك، أما السيد جي إي مور فلا ينتج أي نظام فلسفي على الإطلاق.» مع أنها تنطبق على مور، فإنها لا تنطبق على راسل، ولا سيما في تلميحها إلى الطابع المتقلب الذي تتسم به خطوات رحلة راسل الفلسفية.

وخلال السنوات التي تفصل بين حصوله على شهادته واكتشافه لبيانو — وهي تقريبا عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر — كان راسل خاضعًا لتأثير المثالية الألمانية كما كان يفضلها أساتذته في كامبريدج. وكانت النسخة المنشورة من أطروحة حصوله على الزمالة عبارة عن سردٍ عن الهندسة بالأسلوب الكانطي، ولكن ولاءه الأساسي كان لهيجل؛ إذ كتب سردًا عن الرياضيات بالأسلوب الهيجلي، وأعد جدلية مثالية كاملة للعلوم يهدف منها إلى إثبات أن كل الواقع أصله تصوُّر ذهني، وذلك بأسلوب هيجل.

تبرأ راسل من هذا العمل فيما بعد، بصرامته المعهودة، واصفًا إياه بأنه «ليس إلا محض هراء» (تطوري الفلسفي، ص٣٢). لقد طرأ التغير الجذري في أسلوبه الفلسفي — كما رأينا — نتيجةً لثورته المشتركة مع مور على المثالية، ونتيجةً لاكتشافه للعمل الفلسفي الذي أنجزه بيانو. وكان عمل بيانو مهمًّا للغاية؛ لأنه حفز من رغبة راسل لاشتقاق الرياضيات من المنطق، وقدَّم له الوسيلة اللازمة لتنفيذ ذلك. وكرس راسل